تاريخ سياسي

لورا ربسون: هكذا هندس المستعمِر «الشرق الأوسط»

في كانون الأول (ديسمبر) عام 1944، ألقى أحد كبار مجرمي الاستعمار البريطاني، ونستون تشرتشل خطاباً في مجلس العموم قال فيه، ضمن أمور أخرى: «كما تبين لنا، فإن الطرد هو الطريقة الأفضل والأكثر ديمومة... ستتم عملية تنظيف كاملة». أما الرئيس الأميركي روزفلت، فقد أخبر أنطوني إيدن، رئيس وزراء بريطانيا الفاشل، والشخصية التراجيدية بطل هزيمة السويس: «ستتم إزالة البروسيين من شرقي بروسيا بالطريقة ذاتها التي تمت فيها إزالة اليونانيين من تركيا عقب الحرب». وبعد ذلك بسنوات، علق مهندس تقسيم شبه القارة الهندية اللورد مونتباتن الذي قتلته منظمة الجيش الجمهوري الإرلندي على تلك الجريمة، التي قادت إلى طرد نحو 15 مليون مواطن من أوطانهم، إضافة إلى نحو مليون ضحية، ومآسي لا نهاية لها، علّق بالقول: «لقد كانت أكبر عملية إدارة (administration) في التاريخ. أما في بلادنا، في بلاد الشام، فإن عمليات الطرد والتقسيم لا نهاية لها. الاستعماران البريطاني والفرنسي، عملا على تقسيم المناطق التي احتلاها واستعمراها، تحت تعريف عنوانه «الانتداب» وعلى تقسيم مستعمراتهما الجديدة في بلاد الشام والعراق، ثم على تقسيم كل منها في عملية لا نهاية لها، طبعاً دوماً حسب لورا ربسون مؤلفة كتاب «دول الفصل ـ الترحيل والتقسيم وصناعة الشرق الأوسط» (States of separation: transfer، partition، and the making of the middle east ـ يحوي بعض المصورات والخرائط ـ جامعة كاليفورنيا ـ 2017).

كما طرح الاستعمار الفرنسي تقسيم الدولة السورية «الجديدة»، التي هي قسمت أصلاً من بلاد الشام إلى لبنان وسوريا وفلسطين وعبر الأردن، إلى دويلات مذهبية درزية وسنية وعلوية.

بناء على الطرح الاستعماري الذي دعا إلى تأسيس دول إثنووَطنية، فقد عملت القوتان على فرض التقسيم الجديد، وفق خطوط إثنية ودينية ومذهبية وعرقية، حقيقية كانت أو وهمية. على سبيل المثال، استجدّت مشكلة السريان في بلاد الشام وفي شمالي العراق، الذين كانوا ضحية مجازر تركيا أتاتورك، فطرح المستعمر ـ حكومات وأفراداً ـ خطة ترحيلهم (ترانسفير) إلى جهات بعيدة كل البعد عن أوطانهم، حيث «عثروا» لهم على «أوطان» جديدة لهم في البرازيل وجنوب إفريقيا وتمبكتو وغويانا البريطانية.

المستعمران البريطاني والفرنسي طرحا في الوقت نفسه ترحيل الأرمن إلى سوريا (ولبنان) وتوطينهم في مناطق حدودية، ليشكلوا حزاماً استعمارياً كفيلاً بإثارة المشاكل على نحو دائم (وفق تصورهم طبعاً) ما يمنح لندن وباريس ذرائع التدخل، دوماً بحجة الدفاع عن «الأقليات». أما الدولة التركية الأتاتوركية، فقد طرحت ترحيل كل الأرثوذكس إلى اليونان، وهو ترحيل وفق خطوط دينية. إذ طالبت بضم سكان مرسين العرب الأرثوذكس إلى قائمة المرحلين إلى اليونان. ووجب عدم إهمال قيام بريطانيا بخلق كيانات هزيلة ومحميات خلقت على نحو مصطنع في الخليج الفارسي، تناسب تجمعاً عشيرياً مرتبطاً بها وخادماً لمشاريعها الاستعمارية في المنطقة، وهو ما حاولت تنفيذه في اليمن الجنوبي، لكنها أخفقت بعدما تمكنت جبهة التحرير من هزيمة العملاء. الأمر ذاته فرضه الاستعمار الجديد حديثاً على دولة يوغسلافيا حيث شجع تقسيمها إلى صربيا وكرواتيا والبوسنة ومقدونيا وسلوفينيا، ومن ثم الجبل الأسود «مونتنيغرو»، ومن ثم إعادة تقسيم بعض المنتوج الجديد، دائماً وفق خطوط إثنية ودينية ومذهبية وعرقية، حقيقية كانت أو وهمية.

وكنّا عرضنا في هذا المنبر مؤلفاً عن مشكلة بورما (مينمار) والروهينغا، وجذوره في ممارسات الاستعمار البريطاني المولع بالتقسيم الإثني والعرقي والديني والمذهبي. والطرح الحالي الآتي من واشنطن وكواكبها الأوروبية لتقسيم سوريا والعراق ليس سوى فصل جديد في حركة استعمارية مستجدة بدأت منذ انتهاء الحرب الإمبريالية الأولى، وتحلل الإمبراطورية العثمانية. الهدف، ليس مساعدة ما يسمى «الأقليات»، وإنما استخدامهم ذريعة للتدخل المستمر في شؤون المستعمرات السابقة، والحفاظ على النظام الاستعماري، لكن بشكل «جديد». ولا ننسى أن التقسيم وفق أسس عرقية هو ما قاد إلى نشوء نظام التمييز العنصري في جنوبي إفريقيا وروديسيا سابقاً «زيمبابواي». الهدف الآخر من عمليات الترحيل المقترحة والمنجزة، هو خلق دول أو كيانات سياسية مصطنعة عازلة (كما هو حال أفغانستان التي اجترحها الاستعمار البريطاني لتكون دولة عازلة بينه وبين روسيا القيصرية الساعية دوماً لنيل إطلالة على البحار الدافئة، كما يقال)، تساعد الاستعمار في ديمومة احتلاله وتأثيره في مختلف بقاع العالم. ومن الأمور الواجب لفت الانتباه إليها أن عمليات الترحيل القسرية تمت برعاية الأداة الاستعمارية «عصبة الأمم» كما تتم حالياً برعاية اسمية للأداة الاستعمارية الجديدة، أي «الأمم المتحدة».

ولا يمكن في هذا العرض ذكر عمليات الطرد والتهجير القسري الذي قام به الاتحاد في السوفياتي عقب الحرب العالمية الثانية في غربي البلاد، ومن ثم التهجير القسري لنحو 12 مليون ألماني من أوطانهم ومدنهم وقراهم وحقولهم في بروسيا الشرقية وإقليم السوديت.

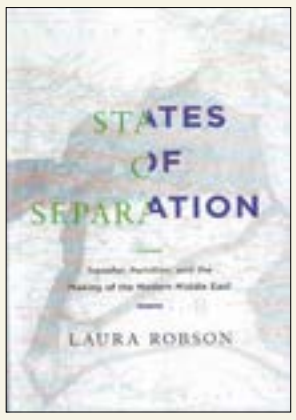

الأرجنتين وشرقي إفريقيا كانتا الفضاء الأول لمشروع تأسيس وطن يهودي/ صهيوني

كما وجب عدم نسيان قيام ألمانيا النازية بترحيل ألمان إلى ما ادعت أنها أوطانهم الأصلية في شرقي أوروبا، وتوطينهم هناك تمهيداً لاستعمار المنطقة بحجة الحاجة إلى مجال حيوي. النتيجة هي استمرار المشاكل في بقاع كثيرة في العالم المستعمَر، في إفريقيا وآسيا على نحو خاص.

مؤلفة الكتاب لورا ربسون وهي أستاذة مساعدة في مادة التاريخ الحديث للشرق الأوسط في «جامعة بورتلاند»، أولت قضية فلسطين اهتماماً خاصاً حيث استعرضت المراحل التي مرت بها مختلف الدعوات لتأسيس وطن يهودي/ صهيوني، في فلسطين، مذكرة بأن الأرجنتين وشرقي إفريقيا، شكلت المحطة الأولى التي اختيرت فضاءً لذلك المشروع الاستعماري ضمن مشروع الترانسفير أو الترحيل. لكن ذلك اقتضى أولاً وقبل كل شيء عد يهود (الأصح: إشكناز) القارة الأوروبية أقليات، وهذا ما عدّته الكاتبة ـ وعن حق ـ مساهمة فعالة في عزلهم وبالتالي إقناعهم بأنهم لا ينتمون إلى أوطانهم، ومن ثم تهجيرهم، إلى فلسطين.

لنتذكر هنا قول اللغوي الألماني الإشكنازي الشهير، أستاذ الأدب في «جامعة دريسدن»، فيكتور كلمبرر (1881-1960) في مؤلفه الفذ «لغة الإمبراطورية الثالثة» (بالألمانية: الرايخ Lingua Tertii Imperii ـ صادر عام 1944) إن هتلر تعلم لغته العنصرية من هرتسل. واضح أن هرتسل تعلم لغته العنصرية من الاستعمار البريطاني، وتحديداً من أستاذه ومعلمه أسقف القنصلية البريطانية في فيينا، فالصهيونية المسيحية ولدت في بريطانيا في نهايات القرن الثامن عشر على إثر الثورة الفرنسية، وهذا الجانب أهملت الكاتبة ضمه إلى عملها المهم للغاية.

في مرحلة لاحقة، وعندما أخفقت محاولات التهجير الوحشية والهمجية والدموية في كثير من الأحيان، لجأت بريطانيا إلى حل استعماري آخر، وهو التقسيم، والذي طرحته بخصوص فلسطين (ومن هنا فإن ما يسمى تضليلاً «حل الدولتين»، هو طرح استعماري في المقام الأول والأخير)، ثم أكملت الحركة الصهيونية العمل الإجرامي بتهجير القسم الأكبر من الفلسطينيين، بالتآمر مع أنظمة سايكس بيكو، وفي الوقت نفسه تهجير اليهود العرب من أوطانهم في شمالي إفريقيا وسوريا والعراق ولبنان واليمن. كما وجب ملاحظة عملية توطين السريان في شمالي العراق بالقرب من الكرد، ولسنا بغافلين عن المشاكل المستعصية بين الطرفين إضافة إلى اضطهاد كرد اليزيديين في برزانيستان، وهو موضوع قائم بذاته.

توثيق

الايزيديات في مواجهة دولة البغدادي

من الصعب والمؤلم في الدرجة الأولى الحديث عن معاناة العراقيين والسوريين الذين وقعوا تحت سلطة تنظيم إبراهيم البدري السامرائي (أبو بكر البغدادي). ظلم ذلك التنظيم اللابشري، وجرائم وحوشه من الزومبي، الذين يسمون أنفسهم مجاهدين، تفوق كل تصور. في الواقع، هم ليسوا أكثر همجية من كثير من الأنظمة، وليسوا أكثر دموية من ممارسات الاستعمار، لكن خيال تلك القطعان فاق غيره. إذ أن كل تنظيم يأتي إلى المنطقة، متسلحاً بالدين، غطاءً لفظائعه وجرائمه، حتى تلك التي نهت عنها الأديان، يكون أكثر وحشية ودموية مما سبقه. رأينا ذلك على يد الخمير الحمر في كمبوديا، وفي رواندا، ورأيناه في ممارسات الاستعمار البريطاني والفرنسي، ومن بعدهما الأميركي وممارساته في مختلف بقاع العالم. الوحشية اللابشرية بدأت في الثاني من شهر آب (أغسطس) عام 2014، كان الإيزيديون يحتفلون في بلادهم التي هجر بعضهم إليها خلال فترة حكم صدام حسين، بانتهاء فترة الصوم، حين ظهرت طلائع قطعان «داعش» الآتية من الموصل الذين قاموا بإطلاق سراح المساجين السنة في سجن بادوش، ومارسوا مذبحة جماعية بحق الستمئة سجين شيعي مسلم.

أول ما قامت به قطعان إبراهيم البدري السامرائي هو تجميع الإيزيديين، رجالاً ونساءً وأطفالاً، ثم فرز الرجال وقتل الآلاف منهم في مذابح جماعية أو إلقاؤهم في حفر حيث تركوا ليموتوا جوعاً وعطشاً أو بسبب ضربة الشمس الحارقة، والبدء بتصنيف النساء تمهيداً لاغتصابهن واستعبادهن أو لبيعهن. تم فصل الأم عن بناتها، والفتيات عن أهلهن وأقاربهن. تشيركَاثي أوتن في كتابها «الايزيديات في مواجهة دولة إبراهيم البدري السامرائي» (With ashes on their faces: yezidi woman and the islamic state ـ أور بوكس ـ 2017) إلى أن ما يقارب الستة آلاف وخمسمئة إيزيدي، معظمهم من النسوة، تم استعبادهم ونقلوا إلى السجون ومعسكرات التدريب في العراق وسوريا. قلة قليلة تمكنت من تحدي السجان والفرار حيث وصلت إلى مناطق آمنة، ليروين معاناتهن تحت حكم الدولة الإسلامية، أو «دولة» الخلافة، على ما يقال.

يروي المؤلف مشاهدات عيان، على لسان مجموعة من النساء والرجال من إيزيديي العراق الذين وقعوا في قبضة البدريستان (البدري ـ ستان)، عندما احتل الموصل وتلعفر وسنجار والقرى والبلدات الإيزيدية في شمالي العراق، وهروب قوات البيشمركة المتمركزة في بلدة كوجو، أمام زومبي الدواعش (البيشمركة قوات كردية أسسها ضابط إسرائيلي في الستينيات بالتعاون مع مصطفى البرزاني والد حاكم برزانيستان، وسنعود إلى هذا الموضوع في مقالة منفصلة).

وكلنا نعلم أن مسعود هرع إلى طهران مستجدياً المساعدة العسكرية التي حصل عليها فعلاً بعدما كادت إربيل تسقط في يد قطعان الزومبي الداعشية، لكن ها هو قد ارتد على اليد التي أطعمته وحمته.

الإيزيديون هم جماعة دينية، كردية اللسان، ديانتها تضم طقوساً ومناسك مأخوذة من الأديان المسماة إبراهيمية، منها العمادة، على سبيل المثال. لهم مواقع دينية كثيرة في بلادهم، يزورونها في الأعياد، التي يتبادلون خلالها الأحاديث وأخبار أفعال قديسيهم، وكذلك مشاكلهم ومعاناتهم غير المحدودة من مختلف الأنظمة، مع أنه من سخريات القدر أن يكون وضعهم إبان حكم صدام حسين أفضل بما يقاس عما هو عليه الآن، وكل ذلك وفق الكاتبة، الصحافية البريطانية المقيمة في كردستان العراق في الأعوام الأربعة الماضية، التي تنقل مشاهداتها عن عمليات محاربة زومبي البدريستان لصحف بريطانية أميركية.

لا شك في أن كل العراقيين (والسوريين طبعاً) عانوا كثيراً من همجية قطعان داعش، لكن للإيزيديين نصيب أكبر كونهم «كفاراً» وجبت إبادتهم، وفق تأويلات القاعدة الوهابية، التي هي الأب الروحي للدواعش. لذا فإن هذا المؤلف يحوي روايات تلك الوحشية المضاعفة، من قتل جماعي للرجال الإيزيديين، واغتصاب جماعي للنساء والفتيات الإيزيديات.

لقد قيل: ثمة ثابتين في تاريخ جرائم

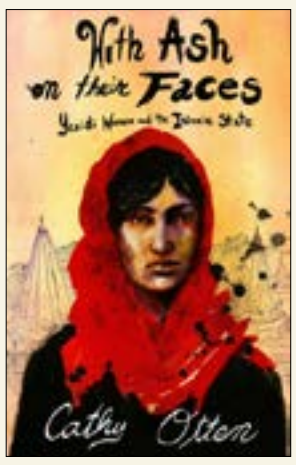

فضلن الموت انتحاراً على الاغتصاب أو حياة العبودية

الإبادة، هما الاعتراف المتأخر بها، وتصوير الضحايا، والنسوة على نحو خاص، أنهن سلبيات تجاه المجرمين. لكن هذا المؤلف يروي شجاعة الإيزيديات في الاعتقال والتعذيب ومواجهة القتل، والفرار. تبتعد الكاتبة في سرد تلك الروايات وغيرها عن الإثارة، وتقدم عرضاً موثقاً، يشبه الفيلم الوثائقي، وهذه إحدى ميزات هذا المؤلف. وقد اختارت الكاتبة عنوان المؤلف من عادة تمارسها النساء الإيزيديات لكي لا يبدين جميلات لزومبي البدريستان، فلا يقعن ضحية السبي أو الاغتصاب. النسوة الإيزيديات كن يجرحن أنفسهن في وجوههن وأجسادهن قبل عرضهن للبيع، كالمواشي، كي لا يقبل أحد ابتياعهن. أما أخريات، ففضلن الموت انتحاراً على الاغتصاب أو حياة العبودية. تقول الكاتبة إن بعض النساء قمن بنقش أسمائهن وأسماء أزواجهن وأقاربهن وأرقام هواتفهن على أجسادهن كي يتم التعرف إليهن في حال قتلهن والعثور على جثامينهن. غيرهن قمن بحياكة أسمائهن وأرقام الهواتف الخاصة على ملابسهن الداخلية كي يتمكن من التواصل مع أهاليهن في حال تمكن من الفرار.

هو «العنف البارد» الذي نراه في الحروب. هو عنف الإهانة والحط من الكرامة وعنف النسيان وعنف الاستهتار وعدم الإنصات للمعاناة. بالمناسبة، مصطلح «العنف البارد» اجترحه تيجو كول الكاتب والصحافي الأميركي من أصل نيجيري، خريج «جامعة كولومبيا»، في سياق الحديث عن جرائم العدو الصهيوني بحق الفلسطينيين. الإيزيديون في العراق عانوا العنفين، الساخن والبارد. يكتسب المؤلف أهميته أيضاً من احتوائه روايات عن البطولة في مواجهة وحوش لابشرية وليس قصص استكانة وخضوع الضحية فحسب.